بين نقد العقل العربي ورفده: الجابري، بعد مرور ربع قرن على تشريح العقل العربي

علاء الدين الأعرجي

الرئيس التنفيذي، النادي العربي - الأمم المتحدة.

مقدمــة

نحن نعزو فشل العرب في تسنم دورهم الريادي، بل المحترم، على الأقل، في معترك الحياة المعاصرة، ليس على الصعيد السياسي فحسب، بل على مختلف الصعد العلمية والتكنولوجية والثقافية والفكرية، إلى تخلف «العقل المجتمعي العربي» السائد، ممّا أدى إلى نكوصهم إلى الماضي التليد، يقدسونه ويتوكؤون عليه. ومع عدم إهمال دور «الآخر» في وضع العقبات للوقوف دون تحقيق النهضة العربية، فإننا نرى أن العامل الأول كان أكثر فعالية وتأثيراً. فلولا ضعفنا وتمزقنا وتخلفنا، لما تمكن هذا الآخر من التسلل بين صفوفنا واحتلال بلداننا ونهب ثرواتنا وإذلال شعوبنا وتوجيه التعليمات أو الأوامر إلى معظم القيادات في أنظمتنا الضعيفة والفاسدة.

لذلك نعتبر المفكر المعروف محمد عابد الجابري، رائداً في نقد العقل العربي، وإليكم بعض الأسباب المبررة لهذا الاعتقاد:

بدأ الجابري بطرح نظرياته الجريئة في مسألة **نقد العقل العربي**، منذ مطلع الثمانينيات، حين أصدر كتابه **نحن والتراث** (١٩٨٠)، الذي أعلن فيه بصراحة أن العقل العربي قام بـ «إلغاء الزمان والتطور» عن طريق رؤية الحاضر والمستقبل، من خلال الماضي، فهو فكر لاتاريخي ذو «زمان راكد» لا يتحرك ولا يتموج. «لذلك كانت قراءته للتراث قراءة سلفية تنزّه الماضي وتقدسه، وتستمد منه الحلول الجاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل»[1]. وأعقبه

(١) محمد عابد الجابري، **نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي**، ط ٦ (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣)، ص ١٩. وصدرت طبعة مزيدة ومنقّحة عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ٢٠٠٦.

بـ **الخطاب العربي المعاصر** (١٩٨٢)، الذي يعتبره كاتب هذه السطور، مدخلاً ثانياً لـ **نقد العقل العربي**، إذ يشكك فيه بأن العرب تمكنوا من تحقيق شيء كثير من نهضتهم المأمولة. ويتساءل، في مقدمته، هل هم «يغالبون، بدون أمل، الخطى التي تنزلق بهم إلى الوراء». وهي حقيقة لاحظها هذا المفكر منذ زمن طويل. وقد تفاقمت على نحو متواصل حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من كوارث يومية متزايدة. ثم يشير إلى مختلف الميادين التي بحثها المفكرون لتشخيص الداء، ويردف قائلاً «ميدان واحد لم تتجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدي صارم، هو تلك القوة أو الملكة أو الأداة التي بها يقرأ العربي ويرى ويحلم ويفكر ويحاكم...إنه العقل العربي ذاته»[٢]، ثم شرع بإصدار مشروعه الجبار في «نقد العقل العربي»، أو بالأحرى تشريح هذا العقل، الذي بدأه بـ **تكوين العقل العربي** (١٩٨٢)، فـ **بنية العقل العربي** (١٩٨٦)، فـ **العقل السياسي العربي** (١٩٩٠)، وصولاً إلى **العقل الأخلاقي العربي** (٢٠٠١). وقبل هذه المجموعة المتميزة، وفي ما بينها، صدرت له مؤلفات مهمة كثيرة بلغت قرابة الثلاثين عنواناً[٣]، تتناول مختلف جوانب الفكر العربي الحديث، وترتبط مباشرة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية السائدة على الساحة العربية. وممّا يذكر أن معظم مؤلفات الجابري صدرت عن «مركز دراسات الوحدة العربية».

لذلك تزايدت منذ مطلع التسعينيات، وحتى يومنا هذا، ردود الفعل الناقدة «الفاعلة أو المنفعلة»، والإيجابية أو السلبية، بشأن نظريات الجابري وطروحاته الخطيرة. وهذه علامة بقايا صحة في الفكر العربي المعاصر.

ونذكر منها على سبيل المثال فقط، ما كتبه جورج طرابيشي، من نقد شديد بل هجوم عنيف، أحياناً، في أربعة مجلدات، تحت عنوان **نقد نقد العقل العربي** وهي: **نظرية العقل وإشكاليات العقل العربي**، **وحدة العقل العربي**، و**العقل المستقيل في الإسلام**، كل ذلك فضلاً عن كتابه الخامس عن **مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام**. وقد تعتبر هذه المجموعة أوسع وأشمل نقد وتحليل لفكر الجابري. وعلى الرغم مما شاب الكتابين الأول والثاني (**نظرية العقل وإشكاليات العقل العربي**)، من هجوم عنيف، يتجاوز حدود النقد أحياناً، فإننا نعترف بقيمة المؤلفات الثلاثة التي اطلعنا عليها، وعمق كثير من المفاهيم والآراء التي وردت فيها، وأهمية المستندات التي دعمتها. ولا يعني ذلك موافقتنا على جميع ما ورد فيها، ولكننا نحتفظ بحق التعقيب عليها قدر الإمكان في مناسبات أخرى.

كما نذكر، بين المؤلفات البارزة الأخرى التي تناولت نقد الجابري: يحيى محمد في **نقد العقل العربي في الميزان**، وهشام غصيب في **هل هناك عقل عربي؟** هذا بالإضافة إلى ما كتبه علي حرب في كتابه **مداخلات**، وكمال عبد اللطيف في **نقد العقل أم عقل التوافق**، وما كتبه طه عبد الرحمن **تجديد المنهج في تقديم التراث** وإبراهيم محمود في **البنيوية وتجلياتها في الفكر**

---

(٢) محمد عابد الجابري، **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢)، ص ٧ ـ ٨.

(٣) انظر: <http://www.aljabriabed.net>.

العربي المعاصر وحسام الألوسي وحسن حنفي، والطيب تيزيني وغيرهم الكثير. فضلاً عن العديد من المقابلات والمناقشات والنقود، التي أجراها «مركز دراسات الوحدة العربية» في بيروت، ونشرت في مجلته الشهرية الثرّة **المستقبل العربي**، والذي اختتمها مؤخراً بإصدار كتاب **التراث والنهضة: قراءات في أعمال محمد عابد الجابري**، حيث كتب نخبة من المفكرين البارزين، الذين درسوا فكر الجابري بعمق، وقدموه بتقدير كبير، مع تعريضه للتحليل والنقد البناء، الجديرين بالتمعن والتعقيب.

أولاً: دلائل هذه الانتقادات والمداخلات

إن تعرُّض كتابات الجابري لهذا القدر الكبير من المداخلات، التي ربما تتجاوز ما تعرض له أي مفكر عربي معاصر آخر، بصرف النظر الآن عن أحقيتها وقيمتها، لا بد أن لها أسباباً ودلالات معينة كثيرة، سنحاول استعراض البعض منها :

ـ تنبع أهمية وخطورة طروحات المفكر الجابري، في المقام الأول، برأيي، من أنها تتعرض مباشرة، ربما لأول مرة، بهذه الصراحة والموضوعية والتأسيس النظري والتاريخي، إلى ما يمكن أن أطلق عليه «أزمة الإنسان العربي»، التي نسبها الجابري بحق إلى «أزمة العقل العربي»، باعتبارها السبب الأساس في **فشل مشروع النهضة العربية**، وبالتالي وصول العرب اليوم إلى ما هم فيه من ضعف وإذلال وتمزق وسيطرة أجنبية وتخلف حضاري واقتصادي وعلمي، على الرغم مما يزخر به الوطن العربي من ثروات طبيعية وبشرية (تجاوز عدد الجامعات العربية اليوم ٢٥٠ جامعة، خرّجت قرابة ١٣مليوناً من «المتعلمين»، وقليلاً جداً من «المثقفين»).

ويعزو الجابري فشل مشروع النهضة العربية، الذي بدأ مطلع القرن التاسع عشر، إلى أن روّادها قد استندوا في تطلّعهم إلى النهوض، لـ «الآخر»، سواء تمثّل هذا «الآخر» بالأجنبي (الأوروبي) الذي تحداهم عسكرياً وفكرياً، وبالتالي، حضارياً، أو تمثّل بـ «الأنا»، الذي قضى نحبه منذ ستة قرون تقريباً، فأصبح «آخر» هو الآخر. أي أنهم انقسموا فريقين: الأول أراد الأخذ بالنموذج الغربي، والثاني راح يتشبث بالنموذج العربي الإسلامي الذي شكّل وما يزال، بالنسبة إليه، السند الذي لابدّ منه في عملية تأكيد الذات لمواجهة ذلك التحدي[٤]. ومهما تنوّعت الآراء والاتجاهات فإن النتيجة النهائية هي الشعور «بأن «شيئاً ما» لم يتحقق، أو لم يُنجز في هذه النهضة العربية». ويرى الجابري أن البعض يعزو ذلك إلى العوامل الاقتصادية أو الاجتماعية أو التربوية، وخاصة نشر المعرفة والعلم. والبعض يراه في الفشل في تحقيق الوحدة والتكامل، ولكنه يستدرك قائلا: «إن ميداناً واحداً لم تتجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدّي وصارم، هو تلك القوة أو المَلَكَة أو الأداة التي بها يقرأ العربي ويرى ويحلم ويفكر ويحاكم... إنه العقل العربي ذاته»[٥].

ولا ينسى الجابري أن يشير إلى أن روّاد النهضة لم يهملوا دور الفكر في رسم طريق

---

(٤) الجابري، المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨.

النهضة وقيادتها «بل إن النهضة الفكرية كانت تطرح نفسها فعلاً كأولى الأولويات في مشروع النهضة...» ويرى أن روّاد النهضة قد نادوا جميعاً بإعداد الفكر القادر على حمل رسالة النهضة وإنجازها، فألحّوا «على نشر المعرفة وتعميم التعليم وحمل الناس على تحكيم العقل بدل الاستسلام للمكتوب أو الإذعان للخرافة». ولكنه يستدرك فيقول إلا أنهم « لم يدركوا أو يعوا أن «سلاح النقد» يجب أن يسبقه ويرافقه «نقد السلاح». لقد أغفلوا **نقد العقل** فراحوا يتصورون النهضة ويخططون لها، بل ويناضلون من أجلها، إما بعقول أعدّت للماضي بحسب تعبير غرامشي، وإما بمفاهيم أنتجها حاضر غير حاضرهم»[٦]. ويمكن القول إنه انطلاقاً من هذه النقطة تولّد مشروعه الكبير في نقد العقل العربي ابتداءً من التكوين إلى البنية ثم السياسة فالأخلاق.

إن إثارة هذا التشخيص الناجح، لجذر الإشكالية التي يعانيها العرب حتى اليوم، حفّز أذهان الناقدين أو الناقمين، سواء السلبيين أو الإيجابيين. بل فتح باباً كبيراً للنقاش والحوار المثمر، كما لاحظنا من الكتابات التي ظهرت بشأنه. وهكذا أشعل الجابري بارقة نور في نهاية النفق المظلم.

ثانياً: نظريات الجابري توحي بنظريات جديدة

القارئ المتمعن لنصّ رائد، يستوحي غالباً من ذلك النصّ أفكاراً جديدة قد تعتبر خليقة بالتسجيل والمناقشة. فهذا التشخيص الموفق قد أوحى إلى كاتب هذه السطور، مثلاً، بطرح مفاهيم السجون التي يتعرض لها العقل العربي منذ ١٤ قرناً، ومنها : سجن القهر السلطوي، بما فيه السياسي والثقافي والاجتماعي. وينجم عن هذا القهر السلطوي المركّب، المتشعّب المتوارَث والطويل الأمد، نوع من التكيّف أو التعوّد، أو بالأحرى الألفة، أي يصبح القهر متجذّراً في أعماق الذات، بل جزءاً منها، كالطير الذي وُلد في الأسر وعاش فيه، فلو أطلق سراحه، لعاد إليه مذعوراً خانعاً، لأنه لا يعرف كيف يعيش طليقاً خارج القفص. ونحن جميعاً أسرى، ليس جسدياً بالضرورة، بل نفسياً وعقلياً واجتماعياً، أسرى سلطة قاهرة، أطلقتُ عليها تعبير «العقل المجتمعي»، الذي تتجاوز سلطته أية سلطة وضعية أخرى(قانونية أو شرعية). (ونحن هنا بصدد الحديث عن المجتمع العربي، مع أن سلطة العقل المجتمعي، التي تعتبر نظرية عامة، بمفهومها الشامل، تسري على جميع المجتمعات في كلّ زمان ومكان). وعلى سبيل المثال الإيضاحي، نشير إلى أن سلطة هذا العقل المجتمعي العربي، السائد في العراق مثلاً، اقتضت معاقبة الفتيات العراقيات اليافعات البريئات اللواتي عُذبن بوحشية واغتصبن، في سجن «أبو غريب» من جانب وحوش بشرية أمريكية كاسرة تدّعي التحضّر، فخرجْنَ حوامل. فعوقبن، هُنّ وأجنتهنَّ الأبرياء، بالقتل صبراً، بأيادي أقرب الناس إليهن إخوتهن أو آبائهن، «غسلاً للعار»، وهذا أحد تجليات العقل المجتمعي المتخلف. وإلا فسيكون عقاب الأهل أشد: العار والشنار والذل والمقاطعة التامة من جانب المجتمع. وهذا مثال واحد من مئات الأعراف

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٩.

والمسلَّمات القابعة في العقل المجتمعي، التي تنخر كيان المجتمع وتضاعف من تخلّفه. ومن جملة هذه المسلمات ما يؤدي إلى الصراع المذهبي والطائفي والعقائدي، الذي تعود أصوله إلى الصراع على الخلافة قبل أكثر من ١٤ قرناً. وهذا ما يحدث في العراق اليوم، بتشجيع وتحريض من «الآخر»، تنفيذاً لمبدأ «فرق تسد».

ومع ذلك فإن نظريتي في «العقل المجتمعي العربي» تختلف عن نظرية «العقل العربي» التي يطرحها أستاذنا الجابري، من جوانب عدة منها، بكل إيجاز:

ـ إن مفكرنا الفاضل، في تحديده لمفهوم «العقل العربي»، يخْلُص إلى أنه «الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معيّنة لها خصوصيتها»، «وليس بوصفه هذا الإنتاج نفسه»، ويقصد به المضمون أو المحتوى[٧].

وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن «العقل المجتمعي العربي»، في نظري، هو الفكر العربي، باعتباره «مضموناً أو حصيلة أو محتوى أو نتاجاً»، صنعته ثقافة معينة، لها خصوصيتها، وليس الأداة التي أنتجت ذلك المضمون، كما يقول الجابري. أما العقل كأداة فيتجلى في مفهوم «العقل المنفعل» أو «العقل الفاعل»، كما سأشرح في ما بعد.

إنه يطابق تقريباً بين «الثقافة العربية والعقل العربي»، ويحصر «الثقافة» التي تمثّل العقل الذي يقصده، بتلك الثقافة التي تتميز بها النخبة. فيقول إنه يقصد بالثقافة «الثقافة العالِمة وحدها، فتركنا جانباً الثقافة الشعبية من أمثال وقصص وخرافات وأساطير وغيرها»[٨].

أما نحن فإننا نرى على العكس من ذلك تماماً، أي أننا نعتقد أن «الثقافة الشعبية» تشكّل أهم مكوّنات العقل المجتمعي البارزة، (ولا نقول جميعها) بما فيها من حكايات وأساطير أو خرافات وعادات ومواسم وجنازات ومزارات وأعراس وأعياد... إلخ؛ أي جميع التقاليد والعادات والمعتقدات المرتبطة بالثقافة الشعبية لعامة الناس. تلك الأعراف التي تتحول تدريجياً، وبتعاقب الأجيال والقرون، وتفاعل الأحداث والظروف، إلى قيم راسخة؛ أي مسلّمات، تشكّل قوانين أو أوامر يفرضها «العقل المجتمعي». ويخضع معظم الناس لهذه الأوامر بـ «عقلهم المنفعل» الذي يخضع، بدوره، لـ «العقل المجتمعي السائد» بلا وعي، وبدون النظر إلى مصداقية تلك المسلَّمات أو فائدتها أو حتى شرعيتها. مثلاً يمارس الملايين من الناس في معظم البلدان العربية شعائر زيارات مراقد الأئمة الصالحين، والتبرّك بها، وتقديم النذور والقرابين «للراقدين» فيها، أو طلب الشفاعة منهم، ودفن الموتى إلى جانب تلك القبور. مع أن مثل هذه الشعائر مخالفة لعقيدة التوحيد عامة، والشريعة الإسلامية خاصة، لأنها تعتبر نوعاً من الشِرك. وقد تعود إلى عقيدة «عبادة الأجداد». وهي عقيدة قديمة كان، وما يزال، بعض الشعوب البدائية يمارسها، بشكل أو آخر. لذلك نقول إن سلطة «العقل المجتمعي» تتجاوز

---

(٧) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٣ ـ ١٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ٧.

بقية السلطات الوضعية أو الدينية، وترقى عليها. وقد شرحت «نظرية العقل المجتمعي» و«نظرية العقل الفاعل والعقل المنفعل» بتفصيل كافٍ، على ما أعتقد، في كتاب **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل**[٩]، فضلاً عن مقالاتي البحثية، المنشورة في مجلة **صوت داهش** الفصلية، ابتداء من عدد صيف ٢٠٠٣، إلى عدد ربيع ٢٠٠٥. وهذا الأخير احتوى على مقالة عنوانها «محددات العقل السياسي العربي: القبيلة، الغنيمة، العقيدة؛ نظرية الجابري في قراءة التاريخ السياسي العربي»، حيث شرحت بإسهاب أن هذه المحددات هي جزء من تجليات العقل المجتمعي العربي، التي ظلت ملازمة له، منذ عصر البداوة، ثم تلاه الصراع على الخلافة، حتى يومنا هذا. وهي تظهر اليوم، مثلاً، في الصراع على السلطة، وعلى تقاسم المناصب في العراق، مثلاً.

وفي الوقت الذي يخضع فيه معظم أفراد المجتمع لـ «عقلهم المنفعل» الخاضع بدوره لـ «العقل المجتمعي»، فقد تظهر في المجتمع نخبة محدودة من الأشخاص الذين يتفكرون في مسلَّمات «العقل المجتمعي» وسلطاته المباشرة وغير المباشرة، ويبحثون في أصولها وفصولها، مستخدمين «عقلهم الفاعل». وأرى أن الجابري هو واحد من هذه النخبة المتميزة، لأنه استخدم «عقله الفاعل»، في نقد العقل العربي، بشمولية ودقة وأصالة، على الرغم ممّا يؤخذ عليه من أنه كان تفاضلياً أحياناً، مضحيّاً بنهجه الإبيستمولوجي الموضوعي، حينما انتصر للعقل السنّي على العقل الشيعي، وانتصر للعقل المغربي على العقل المشرقي. وهذا موضوع آخر ربما سيكون له حظ من البحث في مناسبة أخرى.

ثالثاً: الجابري في رحاب النقد

وعودة إلى الجابري ونقده للعقل العربي، لابد أن نستدرك فنشير إلى أن موضوع «تجديد أو تحديث العقل العربي أو الإسلامي»، كان وما يزال مطروحاً، بقدر أو آخر، وعلى نحو أو آخر، كما هو معروف، من خلال كثير من الأعمال الفكرية المعاصرة والمعتبرة من أمثال: زكي نجيب محمود في **تجديد الفكر العربي**، وفي مقالة له بعنوان «العقل العربي يتدهور»[١٠]، وناصيف نصار في **طريق الاستقلال الفلسفي**، وهشام شرابي في **النقد الحضاري في نهاية القرن العشرين** وفي أعماله الأخرى، وفي جميع الأعمال المهمة والعميقة لمحمد أركون التي تتناول نقد العقل الديني، وأعمال عبد الله العروي في **الأيديولوجية العربية المعاصرة**، و**مفهوم التاريخ** و**مفهوم العقل**، وغيرهم من المفكرين العرب. وعلى الرغم من أهمية جميع هذه الأعمال، لكن يبدو أن الجابري قد استطاع أن يسترعي نظر المفكرين والكتّاب الآخرين وعدد من المثقفين والقرّاء الجيّدين، أكثر من غيره، وذلك لأسباب إضافية أخرى، أذكر بعضاً منها، في ما يلي:

---

(٩) علاء الدين الأعرجي، **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل**، ط ٢ (بيروت: منشورات كتابات؛ الجزائر: دار رياض العلوم، ٢٠٠٤).

(١٠) زكي نجيب محمود، «العقل العربي يتدهور،» **روز اليوسف**، ١١/٤/١٩٧٧.

ـ «لقد تمكّن الجابري بفضل أساليبه في الإنتاج النظري أن يبني صرحاً فكرياً، لا نجازف عندما نعتبر أنه يُعَدُّ واحداً من بين مجموعة قليلة من الصروح النظرية الفاعلة في قلب الحركة الفكرية العربية المعاصرة»[(١١)].

ويمكن أن نشير هنا فقط إلى عناوين بعض من «اللَّبِنات» التي ساهمت، برأيي، في بناء هذا «الصرح الفكري»، كما سمّاه الأستاذ كمال عبد اللطيف، أذكرها على سبيل المثال لا الحصر: النقد الإبيستمولوجي للعقل العربي(مع الأخذ بتحفظنا السابق)؛ الوعي العلمي العميق بأهمية نقد عقل الذات ونقد عقل الآخر؛ « نقد «الأنا» يتطلب نقد « الآخر»، ونقد الآخر لا يكون جذرياً إلّا إذا كان أولاً وقبل كلّ شيء نقداً لصورته في «الأنا» الناقد؛ امتلاك التراث وليس امتلاكنا من جانب التراث؛ تنطلق النهضة من التراث ليس بخضوعنا له، بل بخضوعه لنا؛ ينبغي تجاوز الفهم التراثي للتراث إلى فهم حداثي ورؤية عصرية؛ ولا يعني ذلك القطيعة مع الماضي بل الارتقاء بالتعامل مع التراث؛ الحداثة معناها حداثة المنهج والرؤية والهدف: أي تحرير تصورنا للتراث من البطانة الأيديولوجية والوجدانية التي تضفي عليه طابع العام والمطلق، وتنزع عنه طابع النسبية والتاريخية؛ يمثّل التراث بالنسبة إلى العقل العربي، ليس فقط حاصل الممكنات التي تحققت، بل يعني حاصل الممكنات التي لم تتحقق، وكان يمكن أن تتحقق؛ تأكيد أهمية إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي؛ تدشين عصر تدوين جديد(مع تحفظنا على التسمية)... إلخ.

ونحن نذكر هذه العناوين لبعض اللّبِنات التي شيّدت صرح الفكر الجابري، وربما ساهمت في تشييد الفكر العربي الحديث، ليس لأننا نعتبرها معطيات تدل على مفاهيم جاهزة ونهائية لتشخيص الداء، وربما وصف الدواء، بقدر ما هي مواد أولية ثرّة جديرة بالمناقشة والتعقيب والنقد والتمحيص. وهذا جزء من الأسباب التي أدّت إلى هذه الهبّة الفكرية؛ النقدية، الهجومية أو التحليلية لفكر الجابري.

ـ ونرى أن الجابري يتميّز من كثير من الكتَّاب الباحثين العرب في القضايا الفكرية والسوسيولوجية، بوضوح الرؤية، وما يتبعها من جلاء الشرح والتدرج المعنوي، والتناسق المنطقي بين المقدمات والنتائج. ومع أخذ دقة المعنى وعمق بعض الأفكار المطروحة، بعين الاعتبار، فإن محاولاته تقريب تلك المفاهيم المعقدة، إلى ذهن القارئ المتمعّن، تبدو ناجحة إلى حد بعيد، وبوجه عام.

ـ وقد تدل هذه الانتقادات الكثيرة على أن نظريات الجابري، لامست، كما يبدو، جُرحاً حساساً بل مؤلماً، ظل ينزف دماً، وقيحاً، منذ أول احتكاك مباشر مع «الآخر».هذا الجرح الذي بدأ في عام ١٧٩٨، تاريخ حملة نابليون على مصر، وتفجّر نزيفه بغزارة بعد هزيمة الـ ٦٧، وربما تحوّل إلى ورم خبيث أخذ يسري وينتشر في مختلف أجزاء الوطن

---

(١١) انظر المقدمة في: أحمد جدي [وآخرون]، **التراث والنهضة: قراءات في أعمال محمد عابد الجابري**، إعداد كمال عبد اللطيف (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، ص ٩.

العربي، فأصبح هذا الوطن يوصف بـ «الرجل المريض»، «تَيَمُّناً» بالوصف الذي أطلق على الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة، كما يقول محمد حسنين هيكل.

ومع ذلك نُولي اعتباراً معيناً لتحليل الأستاذ جورج طرابيشي الذي يقول: «ومن منظور علم اجتماع المعرفة قد نستطيع أن نربط بين صعود نجم الجابري كمحلل ناقد للعقل العربي وبين عملية إعادة الاعتبار التي أحيط بها مفهوم العقل والعقلانية في الساحة الثقافية العربية بعد هزيمة الـ ٦٧، وانكشاف خواء الأيديولوجيا العربية من حيث هي بالتحديد أيديولوجيا، أي وعي غير واع». ثم يحاول أن يربط «رواج كتابات الجابري بظاهرة «العصاب الجماعي»، الذي انتاب «الإنتلجنسيا العربية الناكصة إلى التراث»، بعد تلك الهزيمة (كما شرح ذلك في كتابه **المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي**). ويفسّر رأيه هذا قائلاً: «وذلك على وجه التحديد من حيث إن العقل العربي الذي يتصدى الجابري لتحليله ونقده هو حصراً العقل التراثي وامتداداته في «اللاعقل» العربي الحديث والمعاصر»، ثم يستدرك قائلاً: «ولكن لنقرّ حالاً بأن ما صنع مجد الجابري من وجهة النظر المعرفية ليس من طبيعة سوسيولوجية أو سيكولوجية، بل هو بالأحرى من طبيعة إبيستمولوجية». ويضيف معترفاً مرّة أخرى بأن: «ما يميز الجابري عمّن تقدمه من الذين كتبوا عن العقل العربي هو **قوة تأسيسه النظري**، أو الإبيستمولوجي، لهذا العقل، ورفعه إياه من مستوى اللفظ أو المعنى، إلى مستوى المفهوم»[(١٢)].

ومع أننا نأخذ بعين الاعتبار، ما ورد بعد هذا النصّ من نقد مسهب، نقرّ بأهميته من حيث مناقشته لنظرية الفيلسوف لالاند، في ما يتعلق بالعقل المكوَّن والعقل المكوِّن، بيد أننا نحصر اعتراضنا على الأستاذ طرابيشي، مما يفهم منه أنه حشر الجابري مع اللاجئين إلى «التراث» باعتباره «أباً حامياً». والواقع أننا نعتبر الجابري من أشد المعارضين لهذا الاتجاه، بل إنه قد تجاوز كثيراً من الخطوط الحمر، في العديد من كتبه، في هذا الصدد، وخاصة في كتابه **الدين والدولة وتطبيق الشريعة**، مع اعتبار ما سيرد في الفقرة التالية.

ـ ولعل الأهم من كل ذلك أن كتابات الجابري تتميز، على وجه العموم، بالجرأة التي تتجاوز عدداً من الخطوط الحمر التي يفرضها «العقل المجتمعي العربي»، بتعبيرنا، أو السلطات التي تحرسه وتغذّيه، بما فيها الدينية والدنيوية، إذ يفرضها ذلك العقل على أفراد المجتمع، لا كشروط وحدود وقيود، وإنما كقيم ومعتقدات، قد لا يكون لها أي سند شرعي أو تاريخي معتبر، ولكنها تصبح، مع ذلك، وبمرور الزمن وتعاقب الأجيال، من المسلَّمات، التي يؤمن بها أعضاؤه دون مناقشة، بل يدافعون عنها بحماسة وتفانٍ باعتبارها جزءاً من آرائهم الخاصة، وهويتهم المتميزة، ويؤكدون بإخلاص أن معتقدهم هو الصحيح فقط، أما المعتقدات الأخرى فهي خطأ محض، ومنهم الجماعات السلفية التكفيرية. وقد شرحت ذلك في كتاباتي السابقة، وخاصة في كتاب **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي**... المشار إليه أعلاه □

---

(١٢) جورج طرابيشي، **نقد نقد العقل العربي: نظرية العقل** (بيروت؛ لندن: دار الساقي، ١٩٩٦)، ص ١٢.